كل نسخة غير مصدق عليها بخط المؤلف تعتبر مسروقة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

صفحة مصورة

« على شباب هذا العصر الزاهر أتلو هذه الرسائل . هل هنا »
« بها صفحة غرس الصبا ينفح نفوسهم بحب الجمال والخير . »
« ويهون عليهم مضض الحياة . ويبدو فيهم مخلصين للذود »
« عن بلادهم الوديعة . فقد تنبه الدهر لهم . بعد أن طال نومه »
« غيرهم ؟ » حبيبك

. . . .

مقدمة وشكر

استشرت بالأمس من أصوده ذكر اسمه عن قلمي في طبع هذه الصحف . فجاد علي بالرضا والقبول . واليوم أنشرها على الملأ . شاكراً له ذلك . عسى أن تزروها الرياح غداً فتضيع .

المؤلف

علي محمد الشعراني

الرسالة الأولى

(١)

ضيعة الليثي بالصف جيزه .

٥ يونية سنة ١٩١٩ مساء .

يا ملاكي الأمين :

كانت الشمس على وشك الغروب . وقد ملأت حمرة الشفق جو السماء . وانعكست على ما في الأرض . فكانت دموع الفراق للشمس . وهي تودع نصف العالم لينام في هدوء . فوصلتني رسالتك . وكنتُ ذاهلا أمام ذلك المشهد الجليل . تملأ عقلي ذكراك اللذيذة . وسعادة الساعات التي قضيناها سويا . أبثك فيها آلامي . فتزيل عني همومي بابتسامك الحلو . وحديثك الممتع . تحت الأشجار . قرب الغدير . . . .

فارقتك يا بلبلي ففارقت الحياة معك . ولقد كنت أحسب أن الرحيل ينسيني شيئاً من الماضي وحوادثه . فما زادني غير حنين إليك . وتعلق بك .

تركت القاهرة والدموع تسيل من عيني . أسفاً على سعادة كنت أنشدها في القرب منك . فقضى على الدهر بزوالها .

سرت يا ملاكي إلى السفينة . وكأني كنت أساق إلى الموت أجل . إذ كيف يحلو لي العيش وأنت بعيد عني . لا أرى غير طيفك الجميل . يظلني في يقظتي ونومي .

وصلت الريف وخيالك لا يفارقني لحظة . تحدثني الناس فلا أسمع لهم كلاما . ويشيرون إليّ فلا أرى لهم حركة . لأني أوقفت نفسي لك ما دمت لي .

ما كدت يا ملاكي أحط الرحال في ضيعتنا حتى أتتني شقيقتي (نائلة) تحمل إليّ (فلا وماتوليا) . فقلت لأحفظنها لتكون أول هدية لك مني عند التلاق . ولتعلمن أيها الحبيب

أنى أراك فى القمر المنير. والشمس المشرقة. والنجوم الزاهرة. وفي السماء الصافية أراك . وفي الزهور الفياحة. بل إنى أرى فيك كل الجمال . ولست أراه في مخلوق سواك .

يا معبودى : لقد كنت أتوقع يوم وصول خطابك إلى أنى سأعلم عنك مايشرح صدري.. ويقر عيني . من سكون خاطرك . وراحة بالك . ولكن وجدت أنك ما زلت تساهر النجوم . وتقوم الليل تشكوه الوحدة . كما أناجي أنا اليوم القمر . وإحمله شوقي إليك .

فتحت كتابك يا أنيسى . فوجدت فيه زهرتك البديعة . فأزهر في فؤادى المنى . وحيانى الجمال . الذى أنت رسوله . فقبلتها وما زلت . وسأحفظها ما حييت .

أوصيتك يا قمرى الجميل أن تخفف عن نفسك عبء الحياة الثقيل . وأن لا تفكر إلا فى السعادة . وقرب تحقيق الآمال . واليوم أسألك أن لا يكون لك شاغل غير أن تتمهد

صحتك بالعناية . وأن تتمتع بالراحة ما استطعت إليها السبيل .

خرجت اليوم إلى الحديقة التي تطل عليها حجرتي . المنعزلة عن الناس . لأجمع بعض الزهور بيدي . فأطالع وجهك الحسن في جمالها . فقطفت ورداً أحمر . ووضعته على المنضدة . التي جعلتها لي مكتباً . فيكون لي رفيقاً بالليل والنهار .

ذهبت بعد العشاء إلى شاطئ النيل وحدي . لأرى القمر . وهو يسطع بأشعته الفضية على المياه . وسط سكون الليل . وظللت هناك متكئاً على الأرض . أنظر إلى القمر ساعة . أفكر فيك . وأعلل نفسي بقرب اللقاء . ثم عدت إلى حجرتي . وها أنذا أكتب إليك خطابي هذا . والخدم تعد المائدة لتناول السحور . وقد بلغت الساعة واحدة ونصفاً بعد منتصف الليل .

فكن على ثقة أيها الحبيب أنه لن يهدأ لي بال . حتى أراك معافى . ونعود إلى ما كنا عليه من السعادة والسلام ؟

الرسالة الثانية

(٢)

ضيعة الليثى بالصف جيزة .

٦ يونية سنة ١٩١٩ مساء .

يا بانة الحى :

كنت واقفا أمام حجرتي أودع الشمس . وهى تخطر مسرعة نحو الأفق . وكانت بيدى وردة صغيرة . قطفتها قبل ذلك . لأضمها إلى الباقة التي تزين قاعتى بجمالها . ثم أتانى الرسول يحمل كتابك . فقبضته متلهفا . على أطالع ما ينطوى تحت أحرفه من أخبارك . فلم أستطع رغم ما بذلت من الجهد . ولكننى ما كدت أتم قراءته . حتى نفرت دموعى . فخشيت أن يرانى أحد . فدخلت معزلى . ولم يوقظنى من ذهولى

العميق غير قرع الباب بشدة . إيذانا بحلول موعد الأفطار .

آه — يا مؤنسى — لو تدرى كم أطلع على كتبك . وأسائلها عنك لما ضننت على بالأ كثار فى كتابتك . وأن تهون عن نفسك أمر البكاء . فذلك مما يروح عني أسباب الشقاء .

تسألنى . أيها الغزال . هل تدمع عينى . ولو علمت أن الدموع كادت تجمد في مقلتي لكثرة استنزاف مائهما لما سألتنى ذا السؤال . لقد كادت دموع عينى أن تفيض . وهأنذا اليوم أغسل روحي المعذبة بدموع قلبي الحزين . وما يزيد فيضانها سيحا غير بكائك . وتعذيب نفسك .

عزيزتى . لقد قضى على بالعناء . أتزيدنى أنت شدة بشكواك . ألا فاترك الأشجان جانبا . واشرب في اللهو بنصيب . فأن العمر يمضى على عجل . ولا رجعة لما فات .

يا قمرى البديع . امتطيت اليوم صهوة مهر كريم . وقد اشتدت حمارة القيظ . على أخفف ثائرات عذابي بركوب الجياد

كما يقولون . فلم يجدني ذلك الدواء شفاء . ووددت أن لو استطعت الذهاب إليك فأراك . ولكن رجعت البيت أحمل الخيبة والندم.

أينما سرت — يا ملاكي — فطيفك معي . ولا يشفاني في كثير من الأحيان غير لثم منديلك الرقيق . وإشباع نظري من زهرتك الجميلة .

فيا زهرة الوادي : هي أوقات قليلة تنقضي من عمر الدهر . كما تشاء الأيام . وترضى الليالي . فأما إلى لقاء فيه السعادة والهناءة . وأما فراق لا وصل بعده . يتلوه الموت فتحيا الروح الأسيفة حياة الخلود المستطاب . . . .

لم أذكر لك يا بابلي الفرد في خطابي السالف ما لقيت من وعثاء السفر . وما احتملته مع ذلك من الآلام . التي ساورتني بعد آخر لحظة رأيتك فيها .

كان حر ذاك اليوم شديداً . وازدحام الناس في السفينة كثيراً . وطالت على الشقة لما أصابني من الصداع . وكآبة النفس . وما

انتهيت إلى مقرى. حتى ألقيت بنفسى على الفراش. علني أستريح.
ولكن كيف تحبونى الراحة . وقد تركتها فى القرب منك .
وكيف تستقر روحى. وقد نأت عمن تستمد منه الحياة والسلام؟

الرسالة الثالثة

(٣)

ضيعة الليثى بالصف جيزة .

٩ يونية سنة ١٩١٩ مساء .

يا ملاذى :

مضى يومان متتابعان . ولم يصانى من لدنك . مايخفف نار الوجد بفؤادى . ولقد كانت طاقة الورد زاهرة . أنظر إليها . فلا أشعر بما يحوطنى . لأنى كنت أبصر في أوراقها الزاهية ما يحكى جمالك . فلما انقطعت عنى أخبارك . شاركنى الورد أحزانى . فذبلت أوراقه . وجف ماء الجمال من صحيفته . وكنت أهيم على وجهى فى ذلكما اليومين بين الرياض . أنقب عن زهرة بديعة . أبل بحسنها ظمئى لرؤياك . فلم أجد . لأن

الروض أقسم أن لا تنبت فيه زهرة . حتى يأتيني الرسول بنبأ من عندك . وكنت ألقي بنفسي بين الغصون المتعانقة . وتحت الأشجار الوارفة . على ما يجري فيها من الحياة . يعيد إلى ماسلبته مني الأيام . ولقد اضطرمت نيران الغرام بين جوانحي . فاعتزمت على أن أقذف بنفسي في ساقية قريبة من قاعة نومي . ولكن أشفقت على نفسي . فرجعت عن عزمي . حتى لا يسوءك عملي هذا مع مالي فيه من الخلاص من اليأس والشقاء .

لا يرفع عن كاهلي ثقل الهموم قليلا من الوقت غير ذكرى الأوقات . التي مضيناها سويا . لا نشعر بالناس . ولا تظلنا غير أجنحة الحب اللطيفة بين الخمائل . التي تنبعث من خلالها موسيقى الطبيعة الخالدة .

يالله . أفيبكي الحمام الورق على فقد إلفه . وأساو ذكرى أيام ضمها الزمان إلى سفر الأبدية قبل الأوان .

أأنسى سعادة نلتها في جوارك . لا عزاء لي في فواتها غير

ذكراها اللذيذة . أفيذهب الزمان بحلاوة أيام كنت أجلس فيها إلى جانبك . فيجري ماء الشباب في جسمي النحيل بسحر نظراتك .

ألا ليت شعري . هل يدفن الدهر بقية من أمل أحيا اليوم بوميضه . أفيغيب عني قلب أفضيت إليه بسر آلامي .

يا عصفوري الجميل : لقد كنت قبل اليوم أنحدر إلى هوة الشقاء . لتمكن اليأس . وزوال ابتسام الأهل والغرباء في وجهي . ولكنني أحيا اليوم بابتسام سرورك . وإبراق أسارير وجهك .

اليوم أستعين بحبك على مكافحة الخطوب . اليوم أشعر بهناءة العيش . بعد أن ولت وجهها عني سنيناً طوالا . أفلا يكون لك من الحب بعد هذا قوة تتغلب بها على ضعفك . أفليس سلطان الحب قاهراً . لا يرد شكيمته شيطان اليأس . مهما اتخذ لنفسه من أسباب الدفاع .

لم تبك . أيها القمر . إن دموعك اللؤلؤية لا أطهر من أن تسقط على هـذه الأرض الخبيثة المجـدبة . خل عنك البكاء القلب لا يجد ما يطفىء به لهيب الهيام غير سح الدموع .

أيها الملاك : أنني أسمع الآن صوت الكروان فوق ديارنا . فأصم أذني عن سمعه . أذ ما زال يتردد فيها صدى صوتك العذب .

أيها الخليل . وكيف لي أن أقاسم غيرك في نفسي . وقد أوقفتها لك جميعا .

أناشدك الله . أيها الحبيب . أن تنظر إلى العالم بغير ما تنظر إليه الآن . فأن شكوك . وخيباتك . يذهبان بأمل تعلقت به . من شعورك بخفض العيش عاجلا والسلام ؟

الرسالة الرابعة

(٤)

ضيعة الليثي بالصف جيزة .

١٠ يونية سنة ١٩١٩ صباحا .

أيها الحبيب النازح :

أخذ النوم بعقد أجفاني الليلة الماضية بعد أن أصابني دوار لست أدري علته . ولست أذكر غير أنني كنت قبل الرقاد . أطير على أجنحة من الخيال معك . في جنة عرضها السموات والأرض . وما كان أسعدني أثناء نومي هذا . إذ كانت تحفني لذة الأحلام . التي أنت وحيها . أتخيل نفسينا ونحن نرتقي الربوة الجميلة . تكتنف مسالكها أزاهير أختلفت ألوانها . فكانت بهجة للناظرين . ثم تعود أمامي صورة الحديقة . . .

(حديقة الأسماك) الفيحاء بما فيها من أشجار (الجاز وربنا) النائحة. وجداول المياه الصافية... وعلى شاطئ بحيرتها العذبة مقعد كنا نلوذ إليه نشكو الغرام... حيث كنا نمكث هناك ساعات. تمر علينا كأنها الثوانى. كذلك تمضى أوقات السرور على عجل. ولا يبقى لنا من آثارها غير ذكرى عذاب لذيذ...

ما أقسا الزمان. أيها الحبيب. علم ما سيكون فجاد علينا بساعات ياحسنها ساعات. فقلب لنا ظهر المجن. ثم أصابنا بتشتيت الشمل. وآلام الذكرى.

استيقظت من نومى. وما كدت أقف أمام سريرى. حتى تناولت البريد من الرسول، يتسما. وكيف لا. وهو يحمل إلى من لديك ما يجيئنى بلغة صامتة. لا يدرك كنهها غير البائسين أمثالى.

بسطت الكتاب. فرأيت بين ثناياه زهرة فريدة فى حسنها. فانكببت عليها أقبلها. وكلما رفعتها شفتاى أشعر

بالحياة تعود إلى . ولقد وضعتها بين يدى . أطيل فيها النظر . فكانت ترنو إلى بفاتر لحظها . فتسيل لرقتها شئونى ....

فيأيتها الزهرة الناعسة . خبرينى عن ذات اليد الناعمة . التى نفثت بين وريقاتك الدقيقة سر فؤادها . أفضى إلى أيتها الزهرة بما زودتك به تلكما العينان من سحر الجمال . ويأيتها الزهرة . بربك لاتخفى على أمرا عجزت سطور خطابك عن بيانه صميمه ... وحدثينى عن هذا الجمال وذاك الدلال . آه . وعما ينطوى فى فؤاد من أعيش اليوم من أجله . وأفصحى النطق فيما حملتك تلك الروح الزكية من حلو الحديث .

أيها الحبيب . دع الناس يضحكون ويلهون . ولا يغرنك ماترى على وجوههم من ابتسام . واعلم أن حياة ساعة . ينشرح فيها الصدر . وينبسط لها القلب . خير من عيشة أحقاب تصحبها الهموم والسآم ؟

الرسالة الخامسة

(٥)

ضيعة المليخ بالصف جيزة .

١٢ يونية سنة ١٩١٩ صباحا .

أمالكة الفؤاد :

توسطت الشمس كبد السماء . وقد عدت من الحديقة الكبرى . أحمل فلا نضيرا . كانت تتيه به شجيراته الغضة على الروض كله . ويملأ الفضاء بعبقه الجميل . فتمايل الأغصان مع النسيم سكرى .

دخلت البيت العتيق . فوجدت أنى الرحيمة . جالسة قرب باب . وبين يديها كتابك . فتناولته باسما . ثم ألقيت في حجرها هدية الروض المعطار . شكرا لها على ما أحسنت به إلى . من جمعها بين حنان قلبها . ودلائل حبك الأسمى .

وضعت خطابك فوق قلبي . علّ فيه بلسما شافيا لجرحه الدامي . ثم اتجهت قبل حجرتي . لأطالع أسراره فيها . وهناك فتحته مع قلبي . وما انتهيت من قراءته مرة تلو أخرى . حتى أصمى فؤادي الألم ....

أجل . كيف بي أن أعرف السعادة . وروحك الطاهرة تتجرع كأس العذاب .

آه . أيها الحبيب . لقد كنت بجانبك تشكو لي همومك . فأحملها عنك . وإن ضننت بأسرها علي شاركتك فيها . وكنت على الحالين أرفه عنك الألم . وأنفس الكرب . أما الآن وقد شحط دارك عني . وحال المواذل دون ما فيه شفائي وسعدي . فلا أقل من أن أحتمل كيدهم وحدي . وأقاسي العذاب الساعة لبعدك عني . بل وأعاني من سوط الضمير برحا أليما . لقد رثى على سلوتك . وعجزي عن إسعافك . ليقظة عيون الرقباء . وجهامة الأيام لي . ولم أسيء إليها في عزيز .

أيها الملاك . إن خطابك الأخير قد ذهب بشعاع أمل ضعيف كانت فيه سعادتى ونجاتى .

إن أحرف كلماتك الحزينة أتمت ملء شغاف قلبي العليل.

أيها الملاك المحزون : إن الشمس تكتب بأشعتها الذهبية آيات الجمال على صفحات الكائنات كل يوم . عزاء حسنا المشرد والمنكوب . وإن قمر السماء يذرع فضاءها وحيدا . فيسكب في قلب الشاعر الحزين من غير العبرة ما يوقف إذراف دمعه الغالى . الذى يطفىء به حرارة قلب مستعر . تزيده رقة العواطف ضراما .

فهل لك أن تكفى عن البكاء . حتى أرى جمال العوالم كما هو . وهل لك أن تعلمى أن ليس فى الدنيا قريب وغريب . وهل لك أن تدركى أن الأرض ميراث الله . وأن ليس للانسان إلا ما سعى .

ماذا يحزنك وقد بان لك أن هنالك قلبا غير قلبك . قد

أصابه من القروح مالا يرجى له اندمال . أما يشعر قلبك بأن بعيدا منه قلب مصدوع . يردد صدى آلامك فوق آلامه .

اطرحي عنك اليأس من شفائك . واجعلي صدرك رحيبا . تستغني بحصاة حامه عن مياه «مدينة الأسكندر» إن أخفق الجهد . وظل القوم على المناد قائمين . ٩

الرسالة السادسة

(٦)

خيمة اللبنى بالصف جيزة .

١٥ يونية سنة ١٩١٩ صباحا .

يامنية الروح :

لم يحمل إلى البريد أخبارا عنك . منذ ثلاثة أيام مضت بل ثلاثة قرون مظلمة . سجلها الزمان على نفسه . كنت أثناءها أتخبط في بحور اليأس . بين عوامل القلق . ولم أجد لى ملجأ آوى إليه اتقاء مشاهدة الناس غير الاختفاء بين الفروس . أناجيك ساعة . وأذكر عهدا ذهبيا . كنت أنت مليكه . تسكرنى خمرة عطفك . وتسبينى طهارة حبك . بل أذكر أياما قضيناها . لانسبح فيها إلا بذكر الغرام . وقد ألقينا همومنا

على مايحوطنا . من الدوح الباسق . والزنبق الضاحك . فقاسمتنا السعادة . بما أبدت لنا من بيانها الصامت . وما سطرته الطبيعة على معاطف أغصانها الميادة . وأوراقها النضرة من آيات الملاحة والجمال ..

رشفت الشمس رضاب الطل يوما . فتناولت كتابا شيقا . هو (ابتسامات ودموع) ومضيت إلى الروضة الجميلة . وهناك استقبل بي المكان . فلم أسمع غير حفيف الأشجار . ونجوى النسيم للأزهار . وهناك أيها الحبيب . جعلت أقلب النظر فى تاريخ حياة خطه الدهر بقلم من العذاب . وهناك يا بلبلى : اعتزلت العالم وقتا . سبحت خلاله روحى فى بحر زمان قد قبر . وانطرحت على شطآنه أصداف الهناءة . ونصبت لى على سواحله حبائل الموت والشقاء . ولكن : لقد ألقيت بيأسى بين أحضانه ابتغاء مرضاتك . وعللت نفسي بامتلاك تلك اللآلى المنثورة حبا فيك . . . .

عطفت مرة على دوالى الكرم . التي فى جوارى .
وثم جلست فوق العشب . على حافة جدول صغير .
أنظر إلى خميلة حديثة من أشجار (السرو) القصير . وكانت
العصافير تندفع في تغريدها . فتسكن لحلاوة نغماتها نفسى .
غير أنى كنت أبصر من يسارى شبحا كامن نسيج دقيق .
قد طرحها البستانى على أشجار التفاح الذهبى . جنة له من
عوادى الطير . فكنت أذهب بالليل عندما يبزغ القمر .
ويناشر على العالم من أشعته صفحة من الجمال دونها خيال
الشاعر الغزل . لأخلو برؤية ذلك المنظر الفريد . فأبكى
لأنك لست معى أيها الحبيب . . . .

أماه الآن : يامسلاكى الكريم : باقة من الورد
كادت أوراقها أن تجف . وأوشكت أغصانها أن تذوى .
لذلك ترانى أيها الحبيب . حزينا أسيفا . بيد أنى أنظر من
نوافذ قاعتى . فأجد فى الروضة المجاورة ورودا وزهورا

ستفتح أكمامها عن قريب . وستملأ الفضاء أريجا طيبا .
وجمالا باهراً . رأد الأصيل . فتعلو الوجه ابتسامة الأمل
النضير والسلام ؟

الرسالة السابعة

(٧)

ضيعة الليثي بالصف جيزة .

١٩ يونية سنة ١٩١٩ مساء .

ياربة المغاني :

تركتني أتقلب على نار الجوى . وأعاني مضض الوجد . بعد أن قيدتني بأسار من حبك العذري . وأوقعتني في شراك هواك . فبحق العهد القديم . وحرمة سنين مضت علينا في رياض الغرام . ردي عليّ ليالي التي سلفت . فلست أنساها مدى الأيام .

ردي إليّ أيام الهوى . حيث كان الشوق يحرسنا من غيرة الريح . ووشي العذول . حيث كان بارق ثغرك يوضح

لى مواقع اللثم فى ظلمة الدهر ...

أما كفاك ياقرة العين. مارشقتنى به الأيام من سهام لحظك. حتى تلقينى اليوم فى جحيم هجرانك . ترى ماجنته يداى بالأمس . فتحكمين على بظلمة الرمس . إن كنت قد أذنبت فى حبى لك . فهو الشفيع لى عندك . وإن كنت مسيئا إليك . فما عذرى غير ضعفى عن الخلاص من حبائل ظرفك . وضلالى فى بستان جمالك .

يارحمانة القلب : لقد نزل بنا بعض الزائرين قبل اليوم . وأرادوا أن يروحوا عن أنفسهم بمشاهد الرياض الغناء . وكنت يومئذ قد أجمعت العزيمة على مغادرة دارى إلى البساتين . أشكو لها حزنى وبثى . فاتفق الجماعة على مصاحبتى . فسلكنا الطرق التى تظللها أشجار الزيتون العظيمة . ثم دخلنا الجنة الكبرى . وسرنا فى أنحائها المعبدة . فتهافت القوم على قطاف الزهور اليانعة . فسبقتهم إليها . لأجنى نصيبك منها . قبل أن تمتد

أيديهم عليها . ثم تركتهم . أيتها الحبيبة . وذهبت إلى (كشك) الحديقة الجميل . أذكر عصره الذهبي . وأنى شائد صروحه جدي المرحوم الشيخ علي اللبثي . شاعر مصر أيام إسماعيل . وصاحب الحظوة الكبرى لدى توفيق . مليك البلاد من بعده .

صعدت سلالمه . وجلست على مقعد هناك أراقب عبث النسيم بالأغصان . وظلات ساعات ما كان أحلاها . تائها في أحلام لذيذة . كنت أنت القمر . أتخذ من ظلك الجميل مقيلا يقيني من هاجرة الأيام . وكنت أنت الشمس . أستضيء بنورك في ظلمات الوجود . وكنت أنت النجوم يتلألأ جبينك الناصع . فيطرح على قلبي . خيوطا من أمل السعادة . وكنت أرى النسيم مقبلا . يداعب أفنان الأشجار . بعد أن يحمل إلى ظلك ظلاله . أريج حبك . وشذا رقتك . فأميل نشوانا بخمر ذكراك .

كذلك أيها الحبيب . صرفت الساعات . ومازلت .

أسرح فى سماء الأحلام . وفردوس الأمل . فكفانى اليوم من بعدك للزمان انتقاما . كفانى . أيها الحبيب . ما قضت به الليالى على من حكم الوحدة . وجفوة الخلان . ولا تزدنى عذابا بتوانى رسائلك . وانقطاع أخبارك عنى بحق الجمال ؟

الرسالة الثامنة

(٨)

ضيعة الليثي بالصف جيزة .

٢٢ يونية سنة ١٩١٩ صباحا

بنسمة الآمالي :

ما بالك قد تخيرت السكوت عني . بعد أن جدت على برسالك قبل اليوم . أوفاء بوعد مضى مهجور . أم دلالا لعيني تظهرين . أن كان يا بوعد . فلم أسمه مناك قبلا . وما أنا براضيه لك على أية حال . وإن كان تدللا . فكفاني وربك من الآلام تباريح الغرام . ومن البعاد ما أضناني من سقام ....

كنت بالأمس أهيم في روضة من الجمال . يسقي زهورها

حبيك . واليوم أضل فى فلاة . أقفرها هجرك .

كنت فيما مضى . أبصر القمر . يزداد جمالا ولألاء فى كل ليلة . واليوم أراه ينحدر متناقصا في اكتئاب . أسأله السبب باكيا . فيزيدنى ضمنه انتحابا وشجى . وكنت أرى هالته قبل الليلة في اتساع . ومكانه أبدا فى ارتفاع . فعظم الأمل معه حتى صار بدرا . ولكنه أخذ بعد ذلك يسير نحو المحاق . وطفق شعاع الأمل في قلبي يحذو في المحاق . فهل لديك الشفاء ياغادة . أجل هو بين يديك . فلا تضنين به علىّ .

أيها الطبيب . كانت قبل الساعة . تطوح بى أعاصير اليأس . فتذبل زهرة الرجاء من فؤادى . ثم يهب علىّ نسيم بليل من أخبارك . فيعمل بقلبى . ماتعمله قطرات الندى بأوراق ورد شوتها السموم . ولكننى الساعة أدرج فى أكفان من اليأس . وتحمل نعشى ريح عاصفة من الهجران . وكنت بالأمس . أتوجس من البريد خيفة أن يحمل للمنازل سر

الفؤاد . واليوم أرجوه واحدة من العواد .

قديما عرفت بك مواطن الحسن وأسراره . أما الآن . فقد ذهب جمال الأزاهير عن وجهي . ورونق الضحى عن عيني . الآن . قد جفت مياه الجمال في العيدان . ورقة الصوت من الكروان اليوم بدت الدنيا لناظري قبرا مظلما . تحوطني فيه أكفان بالية من الآمال . قد أخلقها الزمان بأنيابه . بل اليوم تمر ذكراك عزة . لست أعلم هل هي ضرب من الجنون . أو رسول المنون .

مناي أن ترق السماء بسلم . لتنشري أشعة الجمال من وجهك وقلبك على جسمي النحيل . كي تدب فيه روح الحياة والآمال . ولتريني ما أتكبده في وحشة الليل من ضروب العذاب . وأثناء النهار من أسى واكتئاب .

فيا للحب الخالد في قلبك من الآثار والمكانة . أمدي إلي يد الصلة . وانتشليني من هاوية الحزن السحيقة . أنى تذكريني راضية والسلام ؟

الرسالة التاسعة

(٩)

ضيعة الليثي بالصف جيزة .

٣٦ يونية سنة ١٩١٩ مساء .

ياوحي الأماني :

تزداد فحمة الليل سوادا . وتشتد الاعاصير هوجا . وأضواء النجوم خفوتا . والبدر شحوبا . بل لقد أقفرت السماء من الجمال . ولم يعد القمر الفريد يطل على العالم من سمائه . فيلقي في قلوب العاشقين والبائسين بلسم العزاء والسلوى . بل لو كان الناس يرونه اليوم . كما كنت أراه بالأمس . ريان الصفحة . مشرق الجبين . فأنا اليوم . أعتقد أن عين الجمال . قد نضبت من وجهه . وضياء نوره اللألاء . قد

حبا بتاتا . فصار اليوم خلوا من جمال كنت أعبده من أجله . بل . أنى لأسكب الدمع دما . أسفا ينجع النفس أسى على زوال ابتسامتها الحلوة . التى كان يبدد عن الحزين آلامه . وعن العاشق المهجور أشجانه .

كنت أقف قبل اليوم . على حافة جدول . كان النسيم يحرك ساعده الصافى . فتترقرق صفحته . ثم أجيل النظر نحو الشرق . فى الفضاء الفسيح . وقد أشرفت الشمس على المغيب . فأراها قد نسجت على الجبال حللا حمراء . من ورد وجنتيها النضير وطرحت شباكا كقوس قزح فى اختلاف الألوان على عروس السهول المنبطحة . تحت سفاح الجبال . فتكسبها من الزهو . ما يخشع له القلب السليم . ويذل لجماله الوجدان الطليق . كنت لا أطيق فرقة ذلك المنظر البديع يا ذات الدلال . فأحول وجهى قبل الشمس . وهى تختبىء خلف ستار الليل . فأشيعها بدموع لوعتها . لكانت ترجمان

فؤادى عما يملؤه من حب الجمال . بيد أنى اليوم لأعبأ بذلك الحسن كسالف عهدى من جراء سكوتك . وطوال بينك ...

أيها الحبيب : ترى متى يحمل البريد الأمين إلىّ من عندك ما تقر به روح ونابة . كاد يذيبها الهجر . ويضنيها الكلال من لوعة الحب ...

أيها الحبيب : ليس قليلا ذلك العهد . الذى هو فترة . انقطع فيها وحى حبك عنى . حتى كاد شيطان التفوط يلمع روضة آمالى . فيذبل زرعها الرطيب .

لقد عاهدتنى . فى مكان لست أسأوه مدى عمرى . فما جعلته اليوم كعبتى . على أن تمدنى على الدوام . برسائل تخفف عنى أسباب القلق على صحتك . فما لى أراك اليوم غير منجز وعدك . إن عهدى بك الوفاء . فى الشدة والرخاء . فما بال الزمان قد حال بينى وبين الحس بذلك العطف المكين فى فؤادك ألحانى .

إن كان لعلة أصابتك . (وقاك الله) . ياغادتى . فابعثى إلى بها فى خطاب . فقد أصابتنى اليوم علة العلل . ولا خوف على من اشتداد الآلام .

أبعثى إلىّ بها . أيتها الحبيبة . وبغيرها مما ترزحين تحته من الأوصاب . كى أحمله عنك . فمنانى أن أراك سعيدة . لأكون كما كنت قبل اليوم . شاعرا بقوة الشباب . سابحا فى أحلامه الطائرة .

أيتها الحبيبة . حركى اليراعة على القرطاس . لأنى فى ظمأ شديد لمطالعة أخبارك . ورؤية أحرف كتابتك المشرقة . كى أرى السبيل أمامى فى وضوح والسلام ؟

الرسالة العاشرة

(١٠)

ضيعة الليثى بالصف جيزة .

١ يولية سنة ١٩١٩ مساء .

ياخيوط بان :

ضحى بجاسلك سناؤه الوردى أبداء الصحة . وتنشر خيوطه الذهبية فوق ربيك أعلام السلام .

ضحى : اشتدت على فيه الآلام . وتكاثرت الهموم . فلم أستطع الاستكانة رغم ما أنا فيه من مرضى الجثمانى . ولم أجد لى معزلا . أناجى فيه روحك الطاهرة . ياغادتى . فى ظلال الدعة والرهبة . غير الجبال العالية . شرق الديار . حيث أقمت زمنا لست أدرك مبلغه . وما دعانى للأوبة إلى

المنزل القديم . غير جماعة الغربان الناعبة . اللاجئة إلى أوكارها .
بين جريد النخيل . الذى يزين ضيعتنا بجمال . فارسه .

أجل : نخيل يعزف سمفه النضير على أوتار النسيم .
وسط سكون الليل . فى دولة القمر الجميل . فيحرك بأيقاعه
الشجي فى القلب ماوأده الحزن اليتيم فى جنبات الفؤاد .

أيتها الحبيبة : أوغلت في السير بين التلال . على ظهر
الجواد مدة . قطعتني فيها الصحراء المستوية عن رؤية البشر .
ذوى الخداع . أصحاب السريرة السوداء . والقلوب القاسية
المريضة . ثم عدت أدراجي مع الشمس . بعد أن مررت
بدار البريد . أستجليه رسالة من عندك . فأجاب دعوتى .
وأنا بين يأس وأمل . فحمدته . ثم أبت إلى قاعتى . أسائل
سطورها عن حالك . فحققت ما كان يدور بخلدى . وما كنت
أتنبأ بوقوعه . وكتبي السالفة إليك . ناطقة بذلك بأفصح لسان .

ياغادتى : لقد أقبل عيد الناس وأفطروا فرحين . وأنا فى

البريد بخطابك . يحمل بين دفتيه الزهر والياسمين . فعاد إلىّ إدراك جمالها بعد أن سلبته منى غائلة الهجران أسبوعين . بل سبعة عشر يوما . كنت أسقى خلالها أزاهيرك الفتانة بدموعى السائلة . وأبكى ما أتحفتينى من آثارك قبل اليوم بسيل من الأحزان فياض .

وصلنى كتابك . أيتها الحبيبة . فكان عيدى دون العالمين طرا . وزاد سرورى بشراه على ماطفح فوق وجوه الناس عامة من البشر في عيدهم . بعد ذلك صرت أشارك القوم فى لهوهم . وأعطف عليهم لجهلهم . وكنت بالأمس لاأقوى على احتمال مرحهم . ولا يرضينى الصفح عن هفواتهم . وقد سودت الأحزان صحيفة قلبى .

أيتها الحبيبة النازحة . لم تضربين في كتابتك على نغمة السخط . وما يخلقه لك خيالك السامى من ضروب السعادة النفسية . كفيل باستروائك . بأوطف العيش .

لم تبكين ياغادة . وما تستمتعين به من أحلام الجنة خير ما يبعد عنك أسباب البكاء . ويجتث من قرارة نفسك أصول الأحزان قديمها والحديث . وفى ذلك راحتى ونعيمى .

عللينى أيتها الحبيبة . ببيض الأمانى . فأنا ما برحت أقتات بالسوف . وما مفجر سعادتى إلا ينبوع هناءتك الكوثرية والسلام ؟

الرسالة الحادية عشر

(١١)

ضيعة الأبرش بالصف جيزة .

٢٣ يولية سنة ١٩١٩ صباحا .

يابستان الجمال :

من عهد الهجران على كرها . ثم شاء الزمان أن يحملني الهوى إلى مغناك . فتركت عزائي في جمالك من محاسن الطبيعة . وحب الوحدة بين الرياض . على ألقاك . أو أحظى برؤياك .

أسقمتني العلل . وشفني الوجد . ولم يبق مني إلا خيال قد خل السير في الحياة . فما شفاني من سقامي . وخفف عني هيامي . غير لذة اجتماعك اللؤلؤي . وحديثك العذب . في دولة البدر الولهان . . . .

أيها الحبيب : ما أغنانى اليوم بثراء حبك السامى . وأثقلنى بحمرة وفائك المختوم . ولئن كانت فى ألوان الشفق سلوى السماء عن فراق الشمس الجميلة . قبيل الليلة الظلماء . فما عزائى الوحيد فى هذا العالم المكفهر الأجواء . غير ما يحفك ياغادتى من جمال سرمدي . ولطف دائم .

لقد ارتاح الزمان لمناسبتى البيضاء فيما مضى . واليوم يزيدنى هياما ما أراه من كمون عدواته الشموسة وانبساطها . اليوم يندفع فى تكشير نابه . حتى ينطفئ سراج الأمل من القلب السقيم . ثم يتسنم عن ثغر مرصوف . فيندلع اللهيب حتى يكاد يذهب بالقلب أكلا لنار الغرام .

أيها الحبيب : عدت إلى القاهرة بعد زمان ما كان أحلاه . . . . فما حال بينى وبينك حاسد أو عذول . ثم التقينا على حب زاده صرف هذا الدهر ثباتا . وبعد الدار اكتمالا .

أجل : لقاء شفع للزمان عندى فيما جره على من

الآلام . لقاء زانه هجرك السالف حلاوة . وحسنك الباهر إضارة . . . .

لاأعطش الله رياضا أزهر الحب فيها مع ورود وجنتيك الخجولة ياغادة . وما أقدس معبدا سجدنا فيه . أمام هيكل الحب الطاهر متعانقين . نسقي ثراه بدموع الأخلاص . فتينع فيه أزاهير الوفاء . تعقده الاثمات . وتحميه القبل ؟

الرسالة الثانية عشر

(١٢)

ضيعة الليثى بالصف جيزة .

٢٩ يونية سنة ١٩١٩ صباحا .

أيتها الحبيبة :

استيقظت اليوم مع الأطيار . أرتل آيات البكور في الأصباح . وقد خرجت عروس السماء من مخبئها ، تسكب على العالم تبرا من أشعتها الذهبية . أنفس لدى الشاعر البائس . والمحب المهجور ، من كنوز سليمان .

قرأت الساعة . صحائف الماضى ياغادة . فمر بذكراى ما صادفنى فى حياتى من بأساء العيش وضرائه . فكأنه معرض لأدوار عمرى السالف . التى تختمها اليوم مأساة من بعدك

عنى . ويكاد لهيب الغرام أن يذهب بتلك الصفحات . التي كتبت بمداد الأسى والعذاب .....

ذهبت بالأمس إلى جزيرة الدبشة (فيشر) قرب ضيعتنا . كي أمتع عيني بجمال مناظرها . فوجدتها قد لبست حلل زينتها من ذهب الأصيل . وقد التفت أغصان أشجارها الظليلة على بعضها . وانتشر في أرجائها أريج الأزهار الضاحكة . وبدت ثغور أكمامها البهية . وعليها رشاش من رضاب ماء عذب . تقذفه إلى السلاء نافورة . قد أحكمت صنعها يد الإنسان .

أبصرت في الجزيرة بيتا مشيدا على عمد . قد كلله الورد الندى . وتظلله أشجار الصفصاف من هاجرة الشمس .

فيه في تلك البقعة . تحت ظلال الأغصان . وجدت مقعدا . قد نسج الياسمين عليه ثوبا ناصع البياض . هنالك خلوت بنفسي ساعة أناجيك يا غادتي على البعد . وأتلو دروس

السعادة . التى تلقيتها فى مدرسة حبك الخالد . فلا أراك حولى كما كنت منذ ثلاثة أسابيع . ترفرفين بأجنحتك الرقيقة . وتترنمين بصوتك الرنان . فتكتحل العين بأثمد الدموع الحارة . والمكان موحش قفر مادام الغزال بعيدا عن كناسه...

كيف الخلاص ياغادتى : من أشراك هذى الحياة والقدر قناص ماهر . يخبىء لنا تحت ستار الغد فخاخ القطيعة والألم...

كيف الخلاص ياغادتى . وقد ساء العيش في هذه البلاد . التى ولهت بحبها منذ نعومة الأظفار . ولم أر اليوم أنجع من الرحيل عنها دواء لكآبة نفسى من خيبة آمالى . وندرة أنصار الفضيلة بين أبنائها . وموات العلم في أنحائها . وما أراه من وضع الأيدى الدخلية بيننا على مرافق هذا الوادى الخصيب . والأمة مع الحكومة فى خمول .

أيتها الحبيبة . لايخفف عنى اليوم عبء أتراحى . غير أننى أشعر بأن الصحة تنضو عنك سرابيل الداء ...

وما عزائى في الغد . أثناء شوط الحياة الممض غير حبنا الطاهر . وذكرى ملاك وسنان . هو مصباح ليل قد زان أعطافه قضيب معتدل . هو أنت .

سلام لك منى حتى اللقاء . يا غادة . يحمله النسيم فى اليقظة . والملائكة الأبرار خلال الوسن ؟

تنبيه : اقتضت الأحوال الحاضرة الاستثنائية حذف جزء كبير من هذه الرسالة . وهو يتعلق بأهم الاغراض التى وضع من أجلها هذا الكتاب . ويتبين ذلك عند مراجعة الاهداء . وسنثبت ذلك الجزء فى طبعة أخرى . إن شاء الله . حقق الله الأمانى ؟

المؤلف

للمؤلف تحت الطبع

„ الأيام الأخيرة

لمحكوم عليه بالأعدام „

لفيكتور هيجو صاحب „ البؤساء „